

مستويات الكتابة عند جبران خليل جبران (قصة الأجنحة المتكسرة أنموذجا)

أ.جدي فاطمة الزهراء/

جامعة سيدي بلعباس

مفهوم الكتابة:

لعل ما يميز كاتباً عن كاتب آخر، هو طريقة و أسلوب كل واحد في تجسيد مطلب أو إنتاجية نصية ينبغي من وارئها تحقيق الأثر الإبداعي والجمالي، ومن ثم نجد مصطلح الكتابة يتراوح بين مفاهيم متعددة فأحيانا نجد أنها تتخذ مفهوماً سوسيوولوجياً على حد قول رولان بارث: "فهي مفهوم سوسيو لساني على أنها لهجة اجتماعية وبسيطة على صعيد المجموعة البشرية بيناللسان، وهو نسق الأمة و الأسلوب هو نسق الذات".¹

فالكتابة ليست فردية شخصية، إنما عملية إصدار للأقوال، تلعب الذات عبرها بالتشتت و بإلقاء نفسها وشاحاً على مهد الصفحة، و مرحلة الكتابة هي المرحلة التي نكتب فيها لكي نكون فيها محبوسين من طرف أولئك الذين نعرفهم، وهي المرحلة المعقولة التي نشرع فيها بإرخاء ستار اللغة، فهي ليست مجرد ضريبة يؤديها الكاتب للمجتمع بل تعتبر فعلاً صريحاً للتحرر من كل القيود و في هذا الاتجاه يقول رولان بارث: إن التدخل الاجتماعي لنص ما... لا يقاس بشعبية الاهتمام به ولا بوفاء انعكاس الاقتصاد الاجتماعي الذي نكتب فيه والذي يسقطه بعض علماء الاجتماع المتلهفين على استقباله فيه، بل

بالأحرى بالعنف الذي يتيح له تجاوز القوانين التي يخولها المجتمع لنفسه إيديولوجيا و فلسفة ... وهذا التجاوز اسم الكتابة.²

والشكل الأدبي هو مظهر الخضوع لذوق ، و الإشكالية بالنسبة للأدب هو خلق لغة لشروط اللغة ذاتها ، باعتبار الأدب لا يخرج عن العلاقة التي تربط الكاتب بالمجتمع وتنمو اللغة الأدبية بذلك نمو العلاقة ولطالما كانت اللغة الأدبية لغة تجاوز من خلال الممارسة المبالغ فيها للتعبير الجديدة .

ويبدو الأدب أفضل حقل للممارسة النصية مستندا بثروات اللغة التي يتم تجميدها عادة بالوظيفة التواصلية ويعيد الأدب بذلك البرهان المجسد في اللاواقعية الألفاظ، ذلك أن اللغة ضرب من التأويل الواقعي ولانعكاسه الأمين.

مستويات الكتابة عند جبران (قصة الأجنحة المتكسرة)

لقد تعددت أشكال الكتابة عند جبران وقد تكون واحدة لأنها كلها تصب في قالب فني جديد ذو أدوات تعبيرية جديدة، فالنص الجبراني لم يتوضح في شكل معين ، كأن يكون القصة القصيرة أو الرواية أو القصيدة أو الخاطرة ، وإنما جمع كل ذلك في نص واحد ، والغالب على هذه المستويات الكتابية هو النثر الشعري.

ويتميز هذا النوع من الكتابة بالإيقاع ، و الخيال ، و الصورة ، واستعمال اللغة العادية المشحونة بنفحات أسطورية تارة وألوان من التراث اليوناني أو الهندوسي أو البوذي تارة أخرى.

ونصوص جبران مشحونة بالثورة و التمرد و هذا ما يفسر طبيعة الشكل غير محدد المعالم ، الناتج عن ثورة غير محددة الملامح و هذا ما عبر عنه بعض النقاد في الأعمال الفنية لجبران فهي "حكايات رمزية"³ "ورآها البعض قصائد طويلة.

فالنص الجبراني ينمو بحسب شروط خاصة به و هذا ما ذهبت إليه يميني العيد التي ترى في النص الجبراني على أنه : "شمولية فنية"⁴ أي مقارنة لأنواع أدبية غنائية رمزية ، تعليمية ، لأن التعبير عند جبران حالة شعور متوقدة ، منفلة من التحديدات أو القيود المسبقة للأشكال و الأنواع الشعرية ، فقد اخترقت مفاهيم الثقافة السائدة وجمالياتها و أشكالها ، معتمدا على أسلوب تصويري ابتكاري إيجائي.

وقد اتخذ جبران القصة أداة تعبير عن النفس الإنسانية في تفاعلها مع الأحداث و الناس ، و في موقفها من الحياة و المجتمع السائد، و لعل القصة في مدلولها هي حادثة أو مجموعة الحوادث المترابطة ينتقها القصاص من الحياة ، وقد لجأ جبران إلى القصة لأنها تعبر عن نفسه وعن رأيه في الناس و الأحداث و قد صور كل ذلك حسب رؤيته ومفهومه.

وقد عرض جبران في قصته "الأجنحة المتكسرة" أثر التجربة والثقافة منتخبا معاني صالحة للتعبير عن فكره، وكما اختار أبطالاً يصلحون لحمل هذه الأحداث و التفاعل معها ، أما الهدف من القصة إظهار النواحي الفلسفية و الخلقية و الاجتماعية في إطار فني قوامه مشكلة الواقع.

وقد ذكر ميخائيل نعيمة عن جبران تردده و عدوله عن نشر قصته "الأجنحة المتكسرة" فقد خيل لجبران أنه لو عرضها على نيتشه لضحك منه ذلك الجبار وقال: "يا بني! دع الذين قلوبهم من عجين وأدمغتهم من مخاط يتلهون بمثل هذه الترهات، أما أنت فعار عليك أن يشقيك حب امرأة، وأكثر عارا أن يسلبك قلبك مطران دون أقل مقاومة منك، و اشد عارا من ذاك وهذا أن تندب حظك على مسمع من الناس و أن نكثر من سكب الدموع أمامهم..... و ما دموعك إلا إرادتك المائعة، الدموع تليق بمآقي النساء ، أما أنت فدعك منها " وقد رأى الناقد جميل جبر في قصة "الأجنحة المتكسرة" "إنها قصة مستكملة الشروط، فهي بطيئة الحركة يعوزها التسلسل المنطقي ويغلب عليها الطابع الوجداني، و تدخل الكاتب فيها بصورة مباشرة."⁶

لعل ما يميز حداثة القصة عند جبران تلك الصناعة في الشكل و تطويعها في مضمون اختاره الكاتب بحيث يتوافق وصعيد

التعبير الأدبي، وهذا ما جعل قصة "الأجنحة المتكسرة" تبدو بشكل سلسلة اعترافات وجيعة تميز أسلوبها بالبراعة و كذا الأفكار بدت لامعة، وصورها تخللتها تشابيه غريبة، جاءت على لسان بطلة القصة سلمى: " فقلت متأثرة و صوتها يرتجف كالأوتار الفضية.."، " لا تخرسه لأن صوته يحيني ، ولا توقف جناحيه لأن حفيفهما يزيل الضباب عن قلبي..⁷"

لأريب أن جبران في قصته "الأجنحة المتكسرة" قد انتزع هذه التشابيه من مطارح طبيعية اختمرت بها نفسه، ليضعها في إطار شعري متموج غني عن كل وصف يفعل في النفوس فعل السحر .

وفضلاً عن ذلك فقصة "الأجنحة المتكسرة" قطعة أدبية حوارية تتقيد بقيود الفن القصصي، كما أنها اجتماعية إصلاحية، ثور في نفسه، وتصدر عن ذاتية فردية رومانسية، وهذا ما عطل حركة الشخصيات فيها، وكل هذا لم يمنع نزعة جبران الإنسانية التي ظهرت معاني الرقة والعفوية فيها.

إذا ولجنا إلى بناء القصة "الأجنحة المتكسرة" سنكتشف أن أبرز أحداث القصة و نقطة انطلاق عقدها الرئيسية في مطاعم مطران وكذا أهداف خطته في تزويج سلمى من ابن أخيه.

أما الحوار فقد كان متنوعاً، فهو حيناً بسيط متلائم مع الشخصيات والأحداث، و حيناً آخر أسمى من مستوى شخصيات القصة، والواقع أن الكاتب يتدخل تدخلاً مباشراً في الحوار، فيلقن الشخصيات ما يريد و ينطقها بأفكارها الخاصة و لعل هذا ما يتنافى مع طبيعة الفن القصصي، ذلك أن تحول الحوار إلى مقاطع خطابية يشكل نوعاً "من الحديث

الفردى، أكثر مما هي أجزاء من حوار بين شخصين." ⁸ وقد لجأ الكاتب في قصته إلى الوصف الكثير لينيرها ويساعده على طرح الفكرة و المشاعر أو تفسير الأحداث.

كما اصطبغت القصة بأبعاد تمثل أبرز معالم نظرة الكاتب فكان البعد الأخلاقي الاجتماعي في مفهوم الخير والشر، وتنديده لطغيان الرذيلة عن الفضيلة، والمادة على الروح والسلطة الظالمة لرجل الدين دون خلق ديني أو رادع من ضمير. وقد صور المرأة في المجتمع على أنها سلعة لا إرادة لها تزوج رغما عنها وغير قادرة أن تكون ضد الشرائع التي تحرمها حقها في الزواج ممن تحب، ولكنها ليست ضد الدين نفسه، فهذه الشرائع سننها المستبدون والمستغلون حسب جبران.

ولعل البعد الأهم في قصة جبران البعد الصوفي في فهم الحب وعلاقته بالحقيقة وأسرارها، فإن الحب سما بروحي الحبيين "سلمى وجبران" إلى الملأ الأعلى وسقطت عنها القيود والجسد فبدأ كسجن ضيق لروحيهما "كما زالت منه شهوة العالم فبدأ بكل معزياته ونزواته كمنفى بعيد، مترامي الأطراف، والحب هنا جعلهما يعانقان الخير الاسمي ويرتفعان عن مبادئ الجسد والحياة ليصبحا كطيفين لطيفين يتعبدان في معبد الحب"⁹ وهذا ما التمسناه في قول جبران عن قوى الخير التي تؤلف بين القلوب وتجمعهما في ظل العفة والروح "أليست هي السكينة التي تحمل شعاع النفس إلى النفس، وتنقل همس القلب إلى القلب؟ أليست هي السكينة التي تفصلنا عن ذواتنا، فنسبح في فضاء الروح اللامحدود مقربين إلى الملأ الأعلى شاعرين بأن أجسادنا لا تفوق السجون الضيقة وهذا العالم لا يمتاز عن المنفى البعيد."¹⁰ وبهذا استطاع جبران بعبقريته الفذة وإحساسه المرفف، أن يحول هذه القصة البسيطة إلى تحفة أدبية وفنية متكاملة ومتناغمة، وكانت الطبيعة وحيا

استمد منه الجمال والخصال الإنسانية السامية والمشاعر النبيلة، كما تفنن في تحليل نفسيات أبطال قصته بدقة متناهية، وقد تحول جبران إلى نحات ينصب للإنسانية تماثيل تجسم مثالية البشرية ومشاعرها وأحاسيسها.

ستظل قصة جبران "الأجنحة المتكسرة" جوهرة في نظر قارئها وحالة من حالات الوعي، استعمل فيها الكاتب "جبران" صورة التقابل والمفارقة، حتى يدخل القارئ في عالم مليء بالصدمات، وكان الخيال توهجا ذاتيا ومطواعا لتعدد مظاهر الطبيعة وهذا ما يفسر التفاعل العميق بين الكاتب والموضوع.

وهذا ما بدا جليا في مؤلفه "الأجنحة المتكسرة" بأكمله وفي أدني تفاصيله، وحتى في عنوان القصة التي تجسد حب جبران الذي أودعه في سطور وتوصل إليه خياله من خلال قوة التصوير في الكلام، فكانت الشكوى فيه دامعة والألحان رقراقة أسقطت حدود الحواس فيها لنسمع صوت الصمت ونلمس حقائق الوجود الخفية.

الهوامش

- 1- رولان بارت، درجة الصفر، عن مجلة مغربية للترجمة في العلوم الإنسانية ع7 السنة الثانية فبراير 1998 ص24
- 2- المصدر نفسه ص26
- 3- خليل الحاوي، جبران خليل جبران، إطاره الحضاري و شخصيته و آثاره ص278
- 4- يميني العيد، الدلالة الاجتماعية لحركة الأدب و الرومانطيسي الشكل في لبنان، ص81
- 5- ميخائيل نعيمة، جبران خليل جبران، حياته، موته، أدبه، فنه، دار صادر، بيروت، ط1964 ص143
- 6- جميل جبرا، جبران في عصره و آثاره الأدبية و الفنية، ص70
- 7- جبران خليل جبران، "الأجنحة المتكسرة" منشورات المكتبة العلمية الجديدة، بيروت لبنان ص50
- 8- إنعام الجندي، الرائد في الأدب العربي، دار الرائد العربي، ط2، 1986 ص526
- 9- اليا الحاوي في النقد و الأدب، دار الكتاب اللبناني، بيروت ط2، 1986 ص290
- 10- جبران خليل جبران، "الأجنحة المتكسرة" ص32